

فصول في النقد والادب

— المقادير —

على أثر ظهور ديوانه حديثاً اقبل الأدباء على تقديمهم من اعطاه حقه ،
و منهم من بخسه اياه . على ان الباحسين لم يكونوا بنظرنا باخسين الا لانهم ارتكبوا
في المدح شططا ، فما كان تقدم نقداً صحيحاً ، انما كان مدحاً وكفى . ولا نغنى
ان مدحهم كان رهبة منه او تائقاً اليه ، مما قد ظن به البعض ، بل نغنى ان
المعيار الصحيح في النقد قد فاتهم ، وانهم قد اخذوا بشهرته ، فخيّل إليهم ان
صاحبهم قد بلغ من الأدب المثل الأعلى ، فكان في نظرهم الأمام الأوحـد
في عالم الأدب .

والحق ان صاحبهم قد ادرك شهرة لا يستهان بها ، ولقد بلغ في نظر
الأكثرية مكاناً عظيماً ، على أن الشهرة ليست دليل قاطع على سمو منزلة المرء في
عالم الأدب المجدى ، فكلم من شهرة كانت واسعة فبددها نقاد مجيد ان عاجلا
او آجلا ، والحق ان هذه النهضة الأدبية ان ظلت على حالتها الراهنة ، فلن
تصيب نجاحاً ، وستظل تتعثر في سيرها ، وان اصابته ثمة نجاح فانما قد تصيبه
عفواً واتفاقاً ، ذلك لان النهضة الأدبية ان كانت باحتياج لشيء فان احتياجها
للققاد المجيدين لشديد ، هم الذين باستطاعتهم ان يحسنوا القياد ، وهم الذين كما
اشرفوا على ذال او مهوى حولوا النهضة عنه ، وساروا بها في الصراط المستقيم ،
لتأتى اكملها ، وتقطف ثمرها ، هم النقدة الذين بتمدورهم ان يميزوا بين الطيب
والخبث يميزون بينهما لينبذ الخبيث ، وليقبل على الطيب ، ولكن لا يخذل الحق
ويعلو عليه الباطل ، هذه مهمة النقاد ، وهى مهمة لها مسؤوليتها ، ولها سرها .
فتش عن كل نهضة ادبية اثمرت تجد ان الفضل كل الفضل فيما اعطت من أكل
للققاد القديرين الخالصين عائد ، وهامهم في بلاد الغرب ، يتصدرون للزعامة ،

ويسرون بالهضة الأدبية سيراً حثيثاً ؛ كتبهم محترمة ، وحكمهم مقبول ،
يخلصون كل الأخلص في عملهم ، ويتفانون كل التفانى في اعلاء شأن قلمهم ،
لا يدعون للمدعين مجالا يستولون منه على عقول السذج لبناء شهرتهم ، بل ترى
النقاد سرعان ما يحيطون بهم ؟ وسلاحهم اقلامهم ، وذخرتهم عقولهم ، فيبددون
شملهم تبديداً ، ويحطمون ماشيدوا من عروش تحطيا .

فإن استطاع العقاد ان يبنى شهرته فانما هو مدين في صون هذه الشهرة الى
غياب النقاد الماهرين كما هو مدين أيضاً الى السذاجة البالغة التي لم ينبج منه
في عصره الا من عصم ربك .

وكم صفتنا كثيراً ، وكم ابتهجنا ، وكم زال عنا من سجوف اليأس سجن ،
عند ما وجدنا بين النقاد اقلية ، لم نسمع منها من قبل شيئاً ، هذه الاقلية هي
بحق مدركة ، فقد اسمعنا اخيراً ، شيئاً طريفاً ، شيئاً ذا قيمة ، في عالم النقد
والأدب ، فدل ذلك على وجود نقاد عندنا لا بأس بهم ، وانهم ان يلاموا على شيء
فانما يلامون على سكوتهم الطويل وترك المدعين يصولون ويجولون وهم في
غفلة عنهم .

ومن هذه الاقلية الأديب ذكريا ابراهيم فقد قرأنا له نقداً في السياسة
اليومية عدد ١٢ نيسان سنة ١٩٢٨ ، فكان في نقده عن العقاد حصيناً ، وفي
معياره صادقاً وفي تمحيصه جريئاً بريئاً . هذا الأديب وهذا اول نقد قرأناه له
لم يكن في نقده اقل براعة من نقاد الغرب ، ولادونهم جدارة وفهماً وادراكاً وجراًة
هذا الأديب وليس له من الشهرة شيء ، قرأنا نقده فاجلناؤه ، ونال عندنا مكانة
لم ينلها المكثرون من الأدباء المدعين الذين يجرون ورأهم من الشهرة الزائفة
اذبالا طوالا . اغتبطنا بهذا الأديب ، وما كان اغتباطنا به الا عن تقدير لمعياره
واقرار بنفاد بصيرته وصدق حكمه . اغتبطنا به فعلمنا ان الربوع لم تبخل علينا
بالنقاد المدركين بل هم تباخلوا علينا وعلى انفسهم فكانوا باللوم والتعنيف جديرين !

والآن لنعد الى العتماد ، وانا والله في حيرة كيف ادرك هذا « المعقد » في
الورى شهرته ، وما الذى بذله ثمننا لهذه الشهرة ، وای جديد مستطرف ابتكره ،
واى مؤلف قد جاء به ، حتى نقول انه دفع في سبيل هذه الشهرة ثمننا باهظا او
عملا خالداً . هل التحرير في الصحف اليومية والاسبوعية من وسائل ادراك الشهرة
والخلود ، ان كان كذلك فما أكثر المشتهرين وما أكثر المخالدين !!!

ام جمع مانشر في الصحف من مقالات متباينة في مجلدات هو من السبل
المؤدية الى الشهرة والخلود ، ام هو النقد الغير برىء والتهجم على كبار الكتاب
والشعراء ، هذا النقد وهذا التهجم اللذان يقطران غيرة وحسداً ،

ام هو التعقيد ولوك ماتقوله الفلاسفة . وترديد اسماءهم . واثبات مصطلحاتهم
والأتيان بأقول لهم دون هضم وفهم كقوله « ان الجمال هو الحرية » أو « هو
تغلب الحرية على الضرورة » ومات كاه ، كل ذلك من مميزات شهرته ووسائل
خلوده . . . فان كان كذلك فيالها من شهرة زائلة وياله من خلود موقوت !!

والا ارونى اين هي مؤلفاته الخالدة ، ومجلداته التى تفيض بخطراته ، وذات
نفسه وروحه ، ورسائله ، وتصويره ، وادراكه للجمال وفنه الفذ الصحيح !!

ارونى اين هي رواياته التى استطيع ان اجد فيها شيئاً من روعة الجمال ، وسحر
الفن ، وسير الأبطال ، وما تسكنه النفس ، وما تجيش به الصدور .

ارونى اين هي رواياته وكتاباتة التى استطيع ان اجد فيها شيئاً من جمال
النيل وارض الكنانة الناطق ربيعها بأبلغ فنون الكلام والتى يسير على « الموهوب »
ان يستوحى سماءها الصافية ونيلها الرقاق .

دعونى المس في نثره روح الكاتب الحساس التى تتجلى في خطرات منصور
فهمى او ارونى في شعره روح الشعر التى تقنصت بشوق ، او وحى الشعر الذى
أنطق حافظ ، ارونى شيئاً من ذلك لأحسه وألمسه ، اما فصوله ومطالعاته ومراجعاته
بفهرتها ، وان كانت هي من مميزات شهرته وخلوده ، فيالها من بضاعة لا تستحق

الخلود ، وياله من بخس بذل في سبيل شهرة ! !

أليس من العيب على هذا الجيل ان جاء مؤرخ نقاد بعد سنين لينحس آثار الذين نالوا درجة الخلود في هذا العصر الذي ينتجج انه عصر النهضة الأدبية ، فيجد أن في طليعتهم العقاد ، وان كل ماله من بضاعة لا يؤهل درجة الخلود ألا يسخر من هذا العصر ومن أهله كيف يبيعون درجة الخلود السامية بثمن بخس ، ألا يشك في وجود جامعات راقية شيدت لهضة الأدب واساتذة قديرين لاعلاء شأنه ، ألا يشك في مقدرة رجله كيف يسمو فرد من بينهم وهذه البضاعة بضاعته لزعامة الأدب فينطأطون له الرؤوس الكباراً ، ألا يحكم على هذا العصر انه عصر أقرب الى الرجعية منه الى النهضة الأدبية ، وان آفته القحط في الرجال والمبقرية ، ألا يحق له ان يسخر من فننا وذوقنا ومعيارنا وسداجتنا جميعاً ؟ ؟ ؟

والعظمة منزلة سامية حرى بنا الان نجود بها الان يستحقها عن جدارة واستحقاق ليكون ذاك العظيم جديراً بالتدوة عند الناشئين والمتأدبين !

والعظمة ان جدنا بها على الدعى عن غير جدارة لانحنو انفسنا والحق ، وروح العصر فحسب ، بل نحني على الناشئة التي ستتبعنا ونحني على انفسنا ايضاً منذ ما يقوم من بين تلك الناشئة حصيف يميز الفث من السمين فيهزأ بنا ويترك لأتباعه مجالا للهزؤ والسخرية بنا .

وها انا بعد اعان للاملاء رائى واقول بصراحة ، دون حسد او رياء او انتقام او مجاملة او تهجم بل عن اخلاص وكفى : ان العقاد ليس « بالكاتب الموهوب » الذي يستحق ان يتنعم بدرجة العظمة وبنعمة الخلود .

ولكن ماهو ان لم يكن كاتباً ؟ ؟ ؟ أهو شاعر ؟ ؟ ؟ استغفر الله . . . كلا كلا وماهو بشاعر ، ومن يعلن انه شاعر لايجن على الشعر فقط بل على ذوقه وعذابه من آله الشعر يؤمئذ لشديد ! !

وهناك من يعيب العقاد في شعره غياب شيء سموه « العاطفة » وفاتهم انهم

كانوا في تسمية هذا الشيء مخطئين . . . هذا الشيء لو ادركوه لسموه « روح الشعر » وهو المعتقد في « شعر العقاد » - وای شعر ؟ ؟ وما هو بالخرى الانظم والشعر امرئ لا يشتري بشمن بل يوهب . ومن هنا كان تطاول العقاد الى جملة وهو غير موهوب تطاولا ماباء من وراءه الا بالفشل المبهين ! !

ويميب العتماد على الشعراء الذين بذوه فسخر منهم انهم يتملقون في مدحهم وان انصف لعاب على نفسه - في نظمه - التشبيب المزيف ، فهو لا يتملق في المدح بل يقترف شيئاً اذا ، ذلك لأنه يأتي الى الحب فيتملق إليه ليؤهمك انه احب وان ماتقرأ من « نظم » هو من « وحى الحب » ، والله يعلم انه لم يحب او ان احب فانما قد اصطدم الحب عنده بصخرة صماء محرومة من الشعور والعواطف ! ! ولو كان العقاد كما يقول اصحابه موهوباً لكان حصده من حبه شيئاً معجزاً وجماد بالشيء الثمين . . . فالحب وحى ينطق الجماد فخرى به اذن ان ينطق من احترف الكتابة وان شاء ربك ان يكشف الوعاء . . .

ولو كان العقاد شاعراً ينطق عن وحى لقرأت كثيراً من شعره ؛ على الأقل في الاسبوع مرة على صفحات تلك الصحف التي يحرر فيها ، لأن الشاعر الملهم لا يجد من بد من نشر شعره وتقدمه على نثره . . . ولكن الآية في العقاد معكوسة وعكسها دليل على انه في ذات نفسه يعتقد انه ليس بالشاعر !

فهذا الكاتب قد برع بشيء وهو التدليس والأيهام والغموض . . . أما التدليس فانه ماهر فيه ؛ فتراه يشترك في أسنى المجالات الغربية لا لينتفع من موادها او لينشر من مستطرفاتها كلاً ؛ بل يستهدي على اسم العظيم الذي زال عند بني قومه اجلالهم وتقديرهم ليروح يستوعب ما قيل في ذاك العظيم من مدح وماسرد فيه من أقوال وماترجم عنه من اعمال وما قيل في كتبه و . . . و . . . اجل . يستوعب هذا كله لالشيء الا ليتخذ عند بني قومه آلة للتدليس ليؤهمهم انه ذو اطلاع واسع ، فيدس اسم هذا العظيم في كلماته ماشاء له التدليس ، ويلوك في آرائه .

دون استيعاب او هضم ، ويردد في ذكر مؤلفاته دون مطالعة او فهم ، ويخاطب في اصطلاحاته او ينقل هذا كله نقلاً عما ترجم لذلك العظيم في تلك المجالات الأجنبية التي يكون مشتركاً بها ، هذه المجالات كم يحرص على اخفائها عن صاحبها وهيئات ان تظفر منه بذكر اسمها ، انه لا يفعل كيلاً يفتضح امره ! !

اما ابهامه وغموضه فقد اشكل امرها على الأدباء وحيراهم ، فمنهم من اتخذ ذاك المثل القائل « والمخفى اعظم » لهم شعاراً ، فقالوا ان لا بد ان وراء هذا الغموض وهذا الأبهام عظمة لم تستوعبها مداركنا وعليه مادنا قاصرين عن ادراكها فالتصور هو منا وليس منه . . . هؤلاء السذج ظنوا بانفسهم سوءاً ، وبلغموضه خيراً ، فمنحوه العظمة بلاهة . ومن هنا ترى ان العقاد كان مديناً لشيء فهو لهذا الغموض ولهذا التدليس جد مدين . . .

واني لا أذكر اني قرأت للسيد مصطفى صادق الرافعي جملة هي بحق مضحكة لما فيها من مهارة في التشبيه والتصوير ، فقد قال « وقد حيره غموض العقاد » شيئاً استطيع ان انقل فحواه دون نصه وهو : « ان القدر كان جد منصفاً باعطائه اسم « العقاد » اذ علم ان « التعقيد » لا بد ان يكون يوماً ما من صفاته وميزاته . وما هو بحق اقل منه تعقيداً ولكن السرف في الشهادة انها شهادة تعقيد صادرة بشأن معقد من أمام المعقدين - تلك الجملة قرأتها للرافعي وقتئذ ولا ازال اذكرها مستغرقاً بالضحك كما ذكر لي اسم العقاد ، ولعمرك ان كان « أمام المعقدين » يشكو من « تعقيد العقاد » فماذا بقي للبسيط الغير معقد ان يقوله ؟ ؟

وهناك فئة اخرى تنعت العقاد بالكاتب لالشيء الا لأن اسلوبه - في نظرهم - يحكي اسلوب المقفع وابن العميد ، والجاحظ . . . من القدماء الذين يجلون ، هؤلاء لا يجلون العقاد الا لأسلوبه . . . وجدير بك بعد ان تهزأ بهم وبمعارهم وبأسلوب صاحبهم ايضاً .

اما وان العقاد ليس بكاتب ولا بشاعر موهوب فما هو اذن ؟ ؟ اللهم اني

لا أدري وأنى لجد مختار في شأنه . . . وأعله يكون « محدثاً » بتشديد الدال ، بالأدب أو « راوية » وإيجازاً أن هو الأ محرر صحيفة ذو شخصية معتدة لا أكثر ولا أقل ، ولعل القدر الذي ساقه للتحرير في الصحف اليومية لم يبخسه حقه فاعظمة الحقيقية لا تستقر إلا بالعظيم الحقيقي وإن استقرت بغيره ينظر البسطاء فما هي بعظمة أن هي في نظر المدركين الأ بهرج ذائل !!

وما انس لا انس سخريتي من العقاد عند احتكاكه بعلامة العراق الزهاوى فهو قد التمس فرصة من اقرار طه حسين وهيكلي في بحوثهما عن النثر والشعر تلك البحوث التي ادلينا بما عندنا من رأى بشأنها — من انه هو الشاعر الذي يمتاز شعره بالفلسفة وإن بين الشعراء المعاصرين ليس هناك من شاعر في شعره فلسفة إلا « العقاد » في مصر « والزهاوى » في العراق التمس صاحبنا هذه الفرصة وراح مجيباً من جهة لتفرد بالفلسفة وحاتفاً من جهة لأن له في هذه الميزة شريكاً إذن فما عليه إلا أن ينزع هذه الشراكة من شريكه ليمتد بالاعظمة التي ليس لها من شريك ، انظر ماذا فعل : انه نشر استفتاء من أحدهم يسأله فيه ان يعطى عن شعر الزهاوى وفلسفته رأيه : أهو بحق ممتاز ام هو لا يستحق ثمة شهرة فاعجب كيف أتى هذا الاستفتاء من بعضهم في وقت بلغ فيه مرجل حقد العقاد حده ؛ لأن كان هذا الاستفتاء مزيفاً فليس بغريب صدوره من العقاد أو بدافع منه ، وإن كانت الظروف هي التي ساقته فليست هذه أول صنعة لها عنده إذ ذاك سعى العقاد ، وكيف لا يسعى الى الخط من شأن الزهاوى لأخراجه من حلية الشعر والفلسفة معاً صفر اليدين ولكن اتظن ان الزهاوى استاذ الفلسفة ، قبل ان يخاق العقاد ويتحلمها لنفسه ، سكت له عن ترجمه لاورك لقد أعطاه درساً مفيداً إذ ذاك ظهر العقاد امام الزهاوى كالمسوخ الذي يبارز عملاقاً أو كالتلميذ الذي يحاج أستاذاً أو كالقزم الذي يتحدى جباراً ، ولقد كانت مساجلتهم ما اعمر ك مساجلة مضحكة تبيانها ولما حوت من حكمة الحكيم وخلط المهزار ورفق الفليسوف ومشاكسة المغرور .

والغريب في العقاد انه لا يقر بعظمة فرد مبرز في الأدب من بنى قومه المعاصرين ذلك لانه يحرص على ان تكون الشهرة مقرونة باسمه لا يزاحمه فيها مزاحم ، وانه دأبه الا ان يتهمهم على البارزين فيزدري بهم . . . فأدب المرحوم المنفلوطي في نظره أدب ضعيف ، كأن شدة الأحاس عند من وسائل الضعف كما فهم خطأ عن نيتشه ، وشعر شوقي ركيك ، والزهاوى ليس بفيلسوف . . اما المدح فأنما يكيله لادباء الغرب وفلاسفة لاعن فهم وتذوق بل لانه يعلم انه كاسب من وراء مدحهم وذكر اسمائهم ربمحا لنفسه ، وانهم لن يقاسموا العظمة في محيطه واعلى طاغور لم ينل عنده مكانة الا لانه بعيد عنه او لأن عظمتهم أخرجها عظماء الغرب فكان حقاً عليه ان لا يتبجح بالانكار لكي لا يسقط فيه . . . فهل رأيت أنانية أبلغ من هذه الأنانية . . . ولعمرك انها لأنانية مرذولة قد بلغت حدها وليس وراءها من مزيد !!

ولعلهم يكل المدح جزافا لصاحبه المازنى الا بعد ان اخذ منه عهداً ان يكيل له الكيل كيابن والصاع صاعين وهكذا فلتكن المتاجرة والا فلا . . . والعقاد هو جد متكالب على هذه الشهرة التي احرزها فهو يعض عليها بنواجذه ويسعى لاستبقائها ماشاء له الغرور والباطل والويل لمن ينازعه عليها او لمن يكشف عن ستاره ليظهر للناس حقيقة امره ، اذ ذاك يكيل له من بضاعته السب والشتم والسخرية بالكيل الوافر . . . ولكن نسي موقفه مع العلامة الكرملى الذى بين عن الكثير من مغالطاته وكشف عن عجزه عند نقده لديوانه . . .

ألم يكن موقف العقاد موقفاً معنياً لا يقره نقد ولا يقره ادب ، انه لم يخرج من آداب النقد والمناظرة فحسب ، بل قد تسفل الى درجة لم يحترم عندها شيخوخة ذاك العلامة الجليل بما كانه له من سب وشتم وقبح ، وماذا يفعل للعاجز غير هذا يلتجئ إليه استبقاء على شهرة اصابته عفواً وما هو بأهل لها . . . أليس النقد قليامين في هذا المحيط واقل منهم اوائك الذين يقولون الحق وان استهدفوا لخطر السب والشتم ، فاذن هين على العقاد محاربة اوائك ماداموا متحفظين ، يفضلون

السكوت على الاستهداف للنقد القاذع الذي قد يصيب اشخاصهم ، وما على
العقاد كما نهض منهم ناهض الا ان ينهال عليه سباً وشتماً حتى يسد عليه منافذ
الطرق باساليب من شتمه وقبحه ، ليكون لغيره عبرة كي لا ينسج على منواله ،
وهكذا فعل مع الكرملى ولكنه في هذه المرة لم يحمده الا فشلاً وعاراً في
نظر المدركين ، وان اصاب في بعض مواضع الدفاع ! !

ولقد تبه لهذا الأمر الفيلسوف الزهاوى في رده على العقاد حيث قال .
لا اعلم لماذا يهاب الكتاب الاحتكاك بهذا الكاتب ولماذا يتحاشون التعرض
به ، فان كان تطاوله هو المهاب فاني ارضى بما يصيبني منه في سبيل اعلاء الحق
وازهاق الباطل ! !

ولقد تراءى لاحد من المعجبين به ان ينقده على اثر ديوانه فخط حديثاً
نشره بالسياسة الاسبوعية رقم ١١٠ تاريخ ١٤ نيسان سنة ١٩٢٨ واتخذ له في
حديثه قريباً وهمياً وكأني به قد ادرك ان هناك نواقص في شعر صاحبه ليس
بالمستطاع ذكرها عند مدحه فذكرها على لسان قريبه الوهمي وراح من حسن
ظنه يخلق لها الأعذار والأسباب الواهية ، ولكن اتظن انه ارضي صاحبه
العقاد مع ما كان في مقاله من مدح لامبرر له ، كلا ، فالعقاد على اثر قراءة حديثه
ونقد ذاك النقاد المستتر في المقتطف راح يعيب عليهما عدم الإدراك وراح
يعطيتهما في « الحقائق الشعرية وكيف يجب ان تفهم » درساً على زعمه ! ! !
فهل لقيت ابلغ وقاحة وغروراً من هذا كله ؟ ؟ ؟ فهو لا يرضى عن احد الا ان
يقول له انك امام الكتاب ومعجزة الشعراء بلا مدافع ولا مزاحم ! ! ! وياليت
غروره وقف عندهذا الحد بل راح - في درسه - يقيس شعره بأبلغ شعر ، وشخصه
بأعظم شاعر عرفتة اللغة العربية من قديم الازمان للآن ، وديوانه بأعظم ديوان ،
وشيطانه بأمر شيطان « ايضاً » ، ويتحدى من يكذبه ونحن اولاء نكتفي بهذا
وبما املاه علينا الحق ، ونترك العقاد ، مادح نفسه ، يقرىء القراء السلام